جامعة المنوفية
مركز البحوث الجغرافية
والكارتوجرافية
بمدينة السادات

مجلة مركز البحوث
الجغرافية والكارتوجرافية

العدد الرابع عشر

الأزمات البيئية في مصر الفاطمية
دراسة في الجغرافية التاريخية

الدكتورة

ناجا عبد الحميد أبو النيل

المدرس بقسم الجغرافيا كلية الآداب

جامعة عين شمس

توطئه:

يعطي عنوان الأزمات البيئية إيحاءًا بحداثتها، وأن مصر في العصور الوسطى لاينطوى تاريخها على مثل هذا المصطلح، ولكن المتفحص في أحداث العصور الوسطى يستدل على تعرضها للعديد من الأزمات البيئية والتي لم تأخذ هذه التسمية فى كتابات هذه الفترة.

وهكذا فإن تعرضها لأزمات البيئة الطبيعية التى تمثلت بصفة أساسية فى تغيرات فيضان النيل وما يترتب عليها من مجاعات وأوبئة، بل وإلى هجرة خارجية من فلاحيها فى أشد هذه الأزمات مما يندرج تحت مفهوم الأزمة البيئية في صفاتها الموضوعية والمنهجية. ومن هنا تم اختيار هذا العنوان الذى يعد غريبًا عن عصره إنما لكى يحيط بما تعرضت له مصر من اختلالات بين السكان والموارد، وبين السكان والغذاء، بما يربط ماضيها بحاضر الدراسات البيئية وبما يتعرض له أيضاً من أزمات مما يحقق هدف الجغرافية التاريخية فى إلقاء الضوء على الماضي بغرض إنارة الحاضر.

والتعرف على الأزمات التى تعرضت لها مصر بوتيرة متكررة وأهمها:

- أزمات الفيضان.
- ما يترتب على أزمات الفيضان من أوبئة ومجاعات.
- ما قد تؤدى إليه من هجرة للأراضى المزروعة من قبل وإلى بوارها، ومن ثم اتساع براريها فى أوقات الأزمة.

وليس اختيار العصر الفاطمي من باب الصدفة ولكن تم اختياره للأسباب التالية:

- وفرة المصادر التاريخية التي كتبت عن تلك الأزمات.
- شدة بعض هذه الأزمات إلى الحد الذى يمكنها أن تمثل الأزمات فى الفترات السابقة عن هذه المرحلة ومنها "الشدة المستنصرية" على سبيل المثال" بما يجعلها تمثل أيضا ما ورد على شاكلتها فى العصور التالية الأيوبي والمملوكي والعثماني وأخيرًا العصر الحديث.
- انطباق شروط الأزمة البيئية والتى تعكس اختلالاً بين الموارد والسكان أو بين الإدارة والحكم واحتياجات السكان أو قد تأتى مباشرة من النهر كعامل بيئي رئيسي متحكم في أرض مصر وسكانها.

من بين الأزمات الواردة في الجدول رقم (١) سوف يتم التركيز على "الشدة المستنصرية" ليس فقط من باب استخلاص العبر والتعبير عن فداحة الأزمات البيئية، وإنما لربطها بما قد يتكرر في الوقت الحاضر حسب التعريف البيني المذكور بما قد يمكن من إضاءة الحاضر بمصباح الماضي من ناحية، وباقتراح توصيات قد تعين على تجاوز الأزمات البيئية في المستقبل وذلك حسب المنهج التالي:

المتابعة التاريخية للأزمات.

- استخلاص العوامل الجغرافية المتكررة لحدوثها.
- خصائص الأزمة البيئية وما تعرض له المجتمع المصري أثناءها من مجاعات.

اقتباس ما يعبر عن إحساس المصريين من كتابات المرحلة الفاطمية عن الأزمة وطرق علاجها، وعن نجاح سياسة المعالجة التالية للأزمة في تجنب تكرار حدوثها أو تفادي أعراضها الفادحة.

ويتمثل المنهج المتبع في تحديد خصائص أزمة فيضان نهر النيل -ارتفاعًا وانخفاضًا- بصفة عامة، ثم التركيز على أزمة "الشدة المستنصرية" مع إيراد ما ورد عنها ، وأخيرًا النتائج التي تجعل من الماضي نبراسًا للحاضر كشروط للجغرافية التاريخية وذلك على النحو التالي:

أولاً: الأزمات البيئية في العصر الفاطمي.

ثانياً: التحليل التفصيلي للأزمات والمجاعات في عهد المستنصر بالله (الشدة المستنصرية).

ثالثاً: الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية للأزمات البيئية.

رابعاً: سياسة الفاطميين إزاء احتواء الأزمات البيئية.

خامساً: الخاتمة.

مقدمة:

يعد فيضان النيل من أهم الأسباب البيئية التى كان لها تأثيرها الواضح على أزمات هذا العصر. فالفيضان المنخفض معناه استخالة رى جميع الأراضى مما يعقبه نقص المحاصيل الزراعية وعجز الحكومة عن جباية الخراج، ولهذا تناقص الخراج فى أيام الأزمة الكبرى التى حدثت فى خلافة "المستنصر بالله" كما يتضح من مراجعة مقادير الخراج فى هذا الوقت(١). أما الفيضان المرتفع فكان يؤدى إلى إغراق الأراضى وإتلاف الزرع، وفى كلا من الحالتين تصبح البلاد مهددة بالقحط الذى كثيرًا ما صحبه انتشار الأوبئة والأمراض.

وقد اختلف المؤرخين فى بيان الحد اللازم لرى الأراضى حتى لا تقحط فعند المسعودى كان ستة عشر ذراعا تمام الخراج بخصب البلاد، وفى سبعة عشر وثمانية عشر استبحر من أرض مصر الربع وفى ذلك ضرر لبعض الضياع، أما إذا زاد عن ثمانية عشر ذراعًا حدث بالبلاد الوباء(٢).

بينما أشار ناصر خسرو إلى أن سبعة عشر ذراعًا هى المستوى العادي، فإذا نقص الفيضان عنها عجز السلطان عن الحصول على الخراج كاملاً (٣).

كما أورد "عبد اللطيف البغدادي" أن ستة عشر ذراعًا تمثل الحد الضروري للخراج ويسمح بري نصف البلاد، وإذا زاد ارتفاع الفيضان إلى ثمانية عشر غلت الأرض وإذا نقص عن ستة عشر ذراعًا تعذر الحال وتوقفت البلاد(٤).

وكثيرًا ما نقص فيضان النيل عن المستوى العادي اللازم لإرواء الأراضى، فمن بين ٨٢٠ فيضانًا تم تسجيل ارتفاعاتها بمقياس الروضة بين القرن السابع والثامن الميلادي كان ٧٢% عاديًا... أى كمية الفيضان كافية لتروي الأراضي الزراعية وإغراق حياضها وتغذيتها بالطمى، ولم تزد أعداد الفيضانات المنخفضة عن ٢٢%، وبلغت نسبة الفيضانات العالية ٥% من جملتها المذكورة من قبل، ومتوسط عدد أيام الفيضان ١١٠ يومًا... قد تقل إلى ٧٥ يومًا، وقد تزيد إلى ١٢٥

---

(١) راشد البراوى، "حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين"، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٤٨، ص٦٣.

(٢) المقريزى، "المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار"، القاهرة، ١٣٧٠هـ، جـ١، ص٥٩.

(٣) ناصر خسرو، "سفر نامة"، ترجمة يحيى الخشاب، الألف كتاب الثاني، العدد ١٢٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ص٨٩.

(٤) راشد البراوي، "حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين"، مرجع سبق ذكره، ص١١٨.

يوم.. ونظرًا لعدم وجود نظام للري الثابت يرتكز على قواعد علمية دقيقة كانوا يعجزون عن تلافى النتائج الخطيرة المترتبة على هذه الظاهرة الطبيعية(١). وأحيانا كان النيل يصل إلى حد الوفاء، ثم يعقب ذلك هبوط سريع مفاجئ قبل ان يتم رى جميع الأراضي، أما الفيضان العالى فلم يكن يقل خطرا عن الفيضان المنخفض وبرغم أنه كان قليل الحدوث إلا أن أثره كان خطيرا، إذ معناه إغراق الأراضى وإفساد المراعى ودمار الدور وهلاك الماشية اللازمة للزراعة. وفى مختلف هذه الحالات كانت الزراعة تتعذر فى كثير من الجهات، ويترتب على ذلك قلة العرض من المواد الغذائية بالنسبة إلى الطلب، وترتفع الأسعار، ولا تحصل الحكومة على الخراج كاملاً، ويتبقى لدى المقطعين والمتقبلين والملاك جانب منه كثيرًا ما كان يتراكم عامًا بعد أخر حتى يصبح مبلغا ضخمًا تجد الحكومة نفسها مضطرة إلى المسامحة به.

ومن الأسباب الطبيعية انتشار الأوبئة الذى كان يؤدى إلى هلاك عدد كبير من الماشية مما يترتب عليه عجز الفلاح عن مواصلة العمل، حيث كانت الحيوانات فى هذا العصر أكبر عون للفلاح المصرى فى النشاط الزراعى.

وقد أشار المؤرخون أن أكبر الأخطار التى كانت تتعرض لها البلاد من جراء هذه الأزمات كانت الأوبئة التى كانت تنتشر فتفتك بالسكان. والذى لوحظ على مجاعات ذلك العصر أنها كانت مصحوبة بانتشار الوباء وهو الطاعون بصفة خاصة إذ كان أحد الأسباب الداعية إلى تلك المجاعة وموت الكثيرين.

ونظرًا لاستواء السطح وصعوبة الصرف وبقاء الماء زمنا طويلاً على سطح الأرض كان يحدث بعض التعفن للمياه وبذلك تصبح المياه الراكدة بيئة صالحة وملائمة لأن تعيش فيها الميكروبات والجراثيم التي تسبب الأمراض.

مما سبق اتضح لنا أن المتغيرات الطبيعية المؤدية إلى الأزمات والمجاعات فى مصر الفاطمية لم تكن هى الوحيدة المتسببة فى تلك الأزمات، حيث أن هناك متغيرات بيئية أخرى كان لها تأثيرها ودورها الفاعل فى العديد من الأزمات والتى نقصد بها البيئة الإنسانية بأقسامها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتى يعزى لها العديد من الأزمات فى هذا العصر.

---

(١) عمر الفاروق السيد رجب: "فصول في جغرافية مصر التاريخية في العصور الوسطى"، المنار، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٧٧.

والبيئة الإنسانية تشكل الجانب الآخر المساهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة فى بروز العديد من الأزمات بقصد أو بدون قصد لذلك لابد من تناول تلك البيئة الإنسانية المعقدة بمكوناتها وأنظمتها المختلفة والتى تتمثل فى:

عدم ارتقاء الطب الوقائي واستخدام الوسائل الدقيقة فى مقاومة الوباء والقضاء على جرثومته، حيث كانت الأزمة تنتهي إلا أن المبكروب يظل كامنا في البلاد، فإذا حدثت مجاعة جديدة صحبها المرض. وفضلا عن هذا فإن الوباء كان يبدأ غالبًا في المدن المزدحمة بالسكان وبخاصة الفسطاط، وترجع هذه الظاهرة إلى سوء الحالة الاجتماعية والصحية، وقد أمدنا "ابن سعيد" الذي زار مصر بعد سقوط الفاطميين بوصف لأكبر بلدان القطر المصرى، ومنه يتضح تمامًا كيف كانت ظروفها ملائمة لانتشار الأمراض، وقد أورد "المقريزي" الكثير مما قيل فيها، ومنه نعلم عادة إلقاء جثث الميت من الحيوان فى الشوارع والأزقة، ورمى الفضلات والأقذار فى النيل فى الأماكن التى اعتادوا الحصول منها على ماء الشرب، وكان السمك يحمل إلى مدينتى مصر والقاهرة، وقد أصابه العطب ولم يمتنع الناس عن أكله، أما الدور فكانت كثيرة بسكانها حيث بلغ عدد سكان الواحدة منها فى بعض الأحيان نحو المائتين من الناس، وحول أبوابها من التراب والأزبال ما يقض نفس النظيف، وحتى المسجد الجامع لم يخل من إلقاء فضلات الطعام فى صحنه وقد دهش "ابن سعيد" من ضيق الشوارع والأسواق[1].

العامل النفسي وأثره في حدوث الأزمات والمجاعات ويحسب له حساب عند دراسة أسبابها ومظاهرها، ولذلك فإقبال البعض على الاختزان إما احتياطًا من وقوع الطوارئ وإما طمعًا في كسب منتظر كفيل بإحداث رجة واضطراب ويتهافت الكل على هذا العمل فيقل القمح فى الأسواق وينقص العرض بالقياس إلى الطلب. وقد ذكر "ابن زولاق" أنه في شوال من سنة ٣٦٢هـ منع "المعز

---

[1] المقريزى، "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار"، مرجع سبق ذكره، جـ ١، ص١٦-١٨.

لدين الله" النداء بزيادة النيل وأن لا يكتب بذلك إلا إليه وإلى "القائد جوهر" فلما تم أبلغ النداء[١]. ومعنى هذا أنه إذا كان الفيضان دون المستوى العادى أو أعلى منه تخفى الحكومة الأمر عن الناس بل ولعلها تعمد بعد ذلك إلى النداء بوفاء الفيضان ولو لم يكن كذلك حتى لا تثير أى قلق فى النفوس.

ويلاحظ أن الخوف من المستقبل المجهول من العوامل السيكولوجية التى تساعد على تفاقم الأزمات الاقتصادية. وكانت عادة الناس فى مصر إذا توقف النيل أيام زيادته أو ارتفع قليلا انتابهم القلق وساورهم الخوف وحدثوا أنفسهم بعدم ارتفاع الفيضان إلى المستوى المطلوب، ويدفعهم هذا الشعور إلى قبض أيديهم على الغلال وخزنها والامتناع عن عرضها فى الأسواق رجاء ارتفاع الأسعار، أو الحاجة إلى ادخار المقادير اللازمة من القوت لهم ولأسرهم.

كما أن الأسباب المفتعلة من جانب التجار وسماسرة الغلال وطوائف المحتكرين والمرابين، فقد اتبع هؤلاء فى الفسطاط عادة شراء المحصول من المزارعين قبل أوان الحصاد فإذا جمع المحصول كلفوا وكلائهم فى الأرياف بنقلها إلى المخازن المعدة لهذا الغرض. وهؤلاء القوم كانوا ينتهزون أتفه الأسباب وأوهى الحوادث فيحجزون الغلال عن السوق حتى يرتفع سعرها تبعًا لقانون العرض والطلب ويرغموا الحكومة على تعديله لصالحهم.

كما أن الفتن والثورات الداخلية تعد من أهم الأسباب السياسية التى لعبت دورًا بارزًا في ظهور العديد من الأزمات حيث تسود الفوضى والاضطراب، فيفقد الفلاح عناصر الثقة والاطمئنان، ويخرب الثوار المزروعات، وتهمل الحكومة المركزية والهيئات المحلية أو تعجز عن اتخاذ التدابير السنوية المعتادة لتطهير الترع وإقامة الجسور وصيانتها حتى تظل فى حالة صالحة لأداء وظيفتها. زد على هذا أن الوباء الذي يصحب مثل هذه الحالة يقلل من الأيدى العاملة ويدفع الفلاحين إلى هجرة القرى والهرب بعيدًا عن مواطن الداء وتصبح الأرض وقد أهملها أهلها ورحلوا عنها.

---

(١) المقريزى، "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار"، مرجع سبق ذكره،جـ١، ص١٨.

أولاً: الأزمات والمجاعات في مصر الفاطمية:

واجه الفاطميون منذ استيلائهم على مصر، المجاعة التي انتابت البلاد في عهد "كافور الإخشيدي" وبدأت سنة ٣٥١هـ واستمرت في حكم الفاطميين الى سنة ٣٦٠هـ. ولذا عمل "جوهر الصقلي" على تخفيف ذلك القحط بأن أنشأ مخزناً للحبوب عهد برقابته إلى المحتسب الذى جعلت مهمته منع احتكار الحبوب. وعلى مدار حكم الفاطميين لمصر والذى امتد منذ عام ٣٥٨هـ (٩٦٩م) إلى سنة ٥٦٧هـ (١٢٧٨م) أمكن رصد العديد من الأزمات، وسنشرح فيما يلي الأزمات التي حدثت في مصر خلال العصر الفاطمي، وقد استقصينا أخبارها وأسبابها ومظاهرها من المصادر المتعددة.

جدول (١) : الأزمات البيئية التي حدثت في مصر خلال العصر الفاطمي

السنة الهجرية	اسم الخليفة الذى حدثت الأزمة في عهده	أسباب الأزمة وأهم أحداثها
٣٧٢ – ٣٧٣هـ	العزيز	توقف النيل واضطربت الأحوال واشتد الغلاء عام ٣٧٣هـ وبلغ ثمن حملة الدقيق أحد عشر ديناراً[١] واقترن بهذا وباء عظيم هلك فيه عالم من البشر.
٣٨٧هـ	الحاكم بأمر الله	قصر النيل وقل القمح وانتهى سعر الخبز إلى أربعة أرطال بدرهم[٢].
٣٩٥هـ	الحاكم بأمر الله	توقف النيل حتى كسر الخليج آخر مسرى والماء على خمسة عشر ذراعاً وسبع أصابع وانتهت الزيادة إلى ستة عشر ذراعاً وارتفعت الأسعار وصحب ذلك ظهور أزمة نقدية سد بها انخفاض سعر

[١] المقريزي، "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، طبعة مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٤٠، جـ ١، ص ٣٠ – ٣١.

[٢] المرجع السابق ص ١٤ .

تابع جدول (١) : الأزمات البيئية التى حدثت فى مصر خلال العصر الفاطمى

السنة الهجرية	اسم الخليفة الذى حدثت الأزمة فى عهده	أسباب الأزمة وأهم أحداثها
٣٩٥هـ	الحاكم بأمر الله	الدراهم الفضية ورغبة الناس فى تجنب التعامل بها[١].
٣٩٦هـ	الحاكم بأمر الله	بعد انتصار أتباع الثائر "أبى ركوة" ساروا إلى الفيوم فاشتد الاضطراب فى مصر وانتشر الذعر فى النفوس وتأثرت الأسواق وارتفعت الأسعار. إلا أن الغلاء لم يدم طويلاً بسبب ما اتخذته الحكومة من إجراءات سريعة حاسمة مع التجار، كما أن ابتعاد خطر الثوار ولد الثقة فى النفوس وهدأت الخواطر[*].

---

[١] المقريزي، "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، مرجع سبق ذكره، جـ١، ص١٤.

* لهذا الحادث أهمية فالحقيقة أن الحياة الاقتصادية أشبه بمقياس الحرارة الشديد الحساسية لأنها تتأثر بأقل الأحداث السياسية التى تحدث ذعرًا في النفوس تكون له أسوأ النتائج وفى حياتنا الاقتصادية اليوم تتأثر بورصات الأوراق المالية وغيرها بأقل الهزات السياسية.

تابع جدول (١) : الأزمات البيئية التى حدثت فى مصر خلال العصر الفاطمى

السنة الهجرية	اسم الخليفة الذى حدثت الأزمة فى عهده	أسباب الأزمة وأهم أحداثها
٣٩٧هـ	الحاكم بأمر الله	زاد انحطاط سعر الدراهم ورفض الناس قبولها فارتفعت أسعار السلع بالنسبة إليها، ثم قصر النيل حتى انتهت الزيادة إلى ثلاثة عشر ذراعًا وأصابع، الأمر الذي ساعد على اشتداد موجة الغلاء حتى بلغ الدقيق كل حملة بدينار ونصف والخبز ستة أرطال بدرهم. ثم توقف النيل عن الزيادة فارتفع سعر الحملة إلى ست دنانير والتليس من القمح أربع دنانير والأرز كل ويبة بدينار ولحم البقر كل رطل ونصف بدرهم والضأن كل رطل بدرهم والبصل عشرة أرطال بدرهم والجبن ثمان أواق بدرهم وزيت الأكل ثمان أواق بدرهم وزيت الوقود رطل بدرهم[١].

[١] المقريزى، "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، مرجع سبق ذكره، جـ ١، ص١٥ – ١٧.

تابع جدول (١) : الأزمات البيئية التى حدثت فى مصر خلال العصر الفاطمى

السنة الهجرية	اسم الخليفة الذى حدثت الأزمة فى عهده	أسباب الأزمة وأهم أحداثها
٣٩٨هـ - ٣٩٩هـ	الحاكم بأمر الله	بلغ النيل أربعة عشر ذراعا وكسر الخليج سنة ٣٩٩هـ والماء على خمسة عشر ذراعا[١].وقال يحيى بن سعيد إن ماء النيل نقص حتى انقطع سير المراكب فى البحر الشرقى من تنيس ومن المحلة وصار مخائض وحدثت مجاعة اقترنت بوباء أتلف خلقا كثيرا من الناس[٢].
٤٠٣ هـ	الحاكم بأمر الله	ارتفع السعر وازدحم الناس على الخبز[٣].
٤٠٨هـ	الحاكم بأمر الله	زاد النيل زيادة كثيرة وغرق من الضياع كثير بأهلها ودخل الماء القاهرة وكان الناس يفرون منها[٤].

[١] يحيى بن سعيد، "التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق"، بيروت، طبعة ١٩٥٩، ص١٩٣.
[٢] ابن اياس، "بدائع الزهور في وقائع الدهور"، بولاق، القاهرة، ١٣١١هـ، ص٥٥، جـ أول.
[٣] المقريزي، "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار"، مرجع سبق ذكره، جـ ١، ص٢٠٧.
[٤] يحيى بن سعيد، "التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق"، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٣ .

السنة الهجرية	اسم الخليفة الذى حدثت الأزمة فى عهده	أسباب الأزمة وأهم أحداثها
١٤١٤هـ - ١٥هـ	الظاهر	ارتفع السعر وتعزر وجود القوت واشتد الغلاء وكثر نقص النيل وقلت البهائم كلها حتى بيع الرأس من البقر بخمسين دينار وفشت الأمراض وكثر الموت وعرض الناس أمتعتهم فلم يوجد من يشتر بها وكثر ضجيج العسكر وتحدث الوزراء وغيرهم بمصادرة التجار وخرج الحاج فقطع عليهم الطريق[١] على ما ذكر "المقريزى" فى كتابه (الخطط جـ١، ص ٣٥٥) .
٤٤٤هـ	المستنصر	قصر النيل ولم يكن بالمخازن شئ بسبب ما سبق أن عمله الوزير اليازورى من بيع ما فيها من الغلال وقد وصل سعر التليس من القمح ثمانية دنانير[٢].

[١] المقريزى: "المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار"، مرجع سبق ذكره، جـ١ ص٣٥٤ ويجعل أبو المحاسن هذا الحادث عام ٤١٧هـ ، ويظهر أن السبب الأكبر فيه كان فناء ذوات الأربع كما يدل على ذلك تحريم ذبح الأنواع السليمة من الماشية (انظر النجوم الزاهرة جـ٤ ص ٢٥٢ فى حوادث هذه السنة) .

[٢] المقريزى، "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، مرجع سبق ذكره، جـ ١، ص ١٨ - ٢٠.

تابع جدول (١) : الأزمات البيئية التى حدثت فى مصر خلال العصر الفاطمى

السنة الهجرية	اسم الخليفة الذى حدثت الأزمة فى عهده	أسباب الأزمة وأهم أحداثها
٤٤٥هـ - ٤٤٧هـ	المستنصر	روى بن أبى أصيبعة أن الغلاء بدأ عام ٤٤٥هـ ونقص النيل فى السنة التالية وتبعه وباء عظيم اشتد عام ٤٤٧هـ حتى قيل إن السلطان (يقصد الخليفة المستنصر بالله) كفن من ماله ثمانين ألف نفس وحصل من المواريث مال جزيل[١].
٤٤٨هـ	المستنصر	حدث فى هذه السنة قحط وغلاء[٢].
٤٥٧هـ	المستنصر	وهذا ما أطلق عليه الكتاب عبارة "الشدة العظمى" أو "الغلاء الكبير" وقد دامت هذه الأزمة الطاحنة سبع سنوات، وقد آثرنا أن نتحدث عنها فيما بعد بالتفصيل لما لها من أهمية وخطر.
٤٨١هـ	المستنصر	هلك الزرع والغلات والمخازن من كثرة الماء[٣].

(١) ابن أبي أصيبعة، "عيون الأنباء في أخبار الأطباء"، جزءان، القاهرة، ط٣، ١٩٤٠.

(٢) أمين سامى باشا، "تقويم النيل"، القاهرة، ١٩٣٨، ص٢٨.

(٣) أبو المحاسن. "النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة"، مرجع سبق ذكره، ١٩٣٥، ص١٢٤.

تابع جدول (١) : الأزمات البيئية التى حدثت فى مصر خلال العصر الفاطمى

السنة الهجرية	اسم الخليفة الذى حدثت الأزمة فى عهده	أسباب الأزمة وأهم أحداثها
٤٩٠هـ	المستعلى	كان بمصر غلاء وجوع[١] ودام الأمر ستة أشهر وسبب ذلك أن النيل بلغ فى الزيادة خمسة عشر ذراعا وتسع أصابع ثم هبط فشرقت البلاد[٢] أى لم تتمكن الأراضى كلها من أن تروى إلى الحد الكافي.
٤٩٢هـ	المستعلى	عم جميع البلاد وباء ومات بمصر خلق عظيم[٣] . إلا أن المقريزى يذكر أنه حدثت فى عهد الآمر وفى وزارة الأفضل أزمة وبيع القمح كل مائة أردب بمئة وثلاثين دينارًا[٤] ومعنى هذا أن الأزمة حدثت بعد عام ٤٩٥هـ إذ امتدت خلافة الأمر من سنة ٤٩٥هـ إلى ٥٢٤هـ.

(١) السيوطي، "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة"، القاهرة، جزءان، ١٣٢٧هـ، ص٣٧.

(٢) ابن إياس . "بدائع الزهور فى وقائع الدهور"، مرجع سبق ذكره، ص٦٣.

(٣) السيوطي، "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة"، مرجع سبق، ص٣٩.

(٤) المقريزي، "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، مرجع سبق ذكره، جـ ١، ص ٢٧.

تابع جدول (١) : الأزمات البيئية التى حدثت فى مصر خلال العصر الفاطمى

السنة الهجرية	اسم الخليفة الذى حدثت الأزمة فى عهده	أسباب الأزمة وأهم أحداثها
٥٣٦هـ	الحافظ	غلت الأسعار وعدم القمح والشعير فى شعبان وبلغ القمح ٩٠ درهما للأردب والشعير سبع دراهم للأوقية والدقيق ١٥٠ درهمًا للحملة والزيت الطيب ثلاثة دراهم للرطل وكثر الوباء والموت[١].
٥٣٧هـ	الحافظ	قال ابن القلانسى "وردت الأخبار من مصر بعظم الوباء فى الإسكندرية والديار المصرية بحيث هلك هناك الخلق العظيم[٢].
٥٤٣هـ	الحافظ	بلغت زيادة النيل تسعة عشر ذراعًا وأربع أصابع[٣] وهذا ما ذكره المقريزى نقلاً عن "ابن ميسر" إلا أن السيوطى فى "حسن المحاضرة" جعل ذلك فى سنة ٥٤٤هـ[٤].

---

[١] السيوطي، "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة"، مرجع سبق ذكره، ص ٨٥.

[٢] المقريزى، "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، مرجع سبق ذكره، جـ ١، ص ٢٨.

[٣] المرجع السابق، ص٩٧.

[٤] أمين سامى باشا، "تقويم النيل"، مرجع سبق ذكره، جـ١، ص ٢٨.

تابع جدول (١) : الأزمات البيئية التى حدثت فى مصر خلال العصر الفاطمى

السنة الهجرية	اسم الخليفة الذى حدثت الأزمة فى عهده	أسباب الأزمة وأهم أحداثها
٥٤٥ – ٥٤٦هـ	الظافر	ذكر "ابن القلانسي" فقال أنه وردت الأخبار بفناء عظيم فى دمياط لا مثيل له بحيث أحصى المفقود منهم فى السنتين بأربعة عشر ألفا[١] ويظهر أن الوباء كان محليًا أي في هذه الجهة وحدها.
٥٥٤هـ	الفائز	وكان ذلك فى وزارة الصالح طلائع بن زريك لقصور ماء النيل عن الوفاء وبلغ ثمن أردب القمح خمسة دنانير[٢]. ولم يحدثنا المقريزى عن السنة التى حدث فيها هذا الغلاء ونرجح أنها ٥٥٤هـ إذ فيها بلغت زيادة النيل خمسة عشر ذراعاً وأصبع[٣].
٥٥٩هـ	العاضد	عظمت زيادة النيل وبلغ ثمانية عشر ذراعًا وثلاثة عشر أصبعًا فسقطت الجدران وغرقت البساتين وفارت الآبار[٤].
المصدر: مصادر تاريخية مجمعة.		

ولعل من أبرز الأزمات التى لم ترى مصر الفاطمية مثيلا لها من حيث قوتها وطول مدتها هى "الشدة العظمى" التي لقبت بهذا المسمى لهذا السبب والتى سوف نتناولها بالعرض التفصيلي نظرًا لما تمثله من دراسة حالة لإحدى الأزمات المدوية والمؤثرة تأثيرًا بالغًا في أحوال هذا العصر والتى نعرض لأهم أسبابها

---

[١] المرجع السابق، ص٢٨.

[٢] المقريزى ، "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، مرجع سبق ذكره،ص ٢٩.

[٣] أبو المحاسن، "النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة"، مرجع سبق ذكره، ص٢٣١.

[٤] أمين سامى باشا، "تقويم النيل"، مرجع سبق ذكره، جـ١، ص ٢٨ نقلاً عن كوكب الروضة".

البيئية سواء الطبيعية أو البشرية والتى تضافرت معا لتشكل سويا التركيبة الرئيسية لهذه الأزمة والتى نادرًا ما نجد لها مثيل من حيث الترابط القوى والتشابك الواضح من بين عناصرها المختلفة وهو الأمر الذى أدى الى تضخم هذه الازمة وطول مدتها وعظم تأثيرها مقارنة بالأزمات الأخرى حيث أطلق عليها "الشدة العظمى" أو "الشدة المستنصرية".

ثانيًا: التحليل التفصيلي للأزمات والمجاعات في عهد المستنصر بالله (الشدة المستنصرية):

وصف المؤرخون هذه الأزمة بأنها من أعنف الأزمات التي لم تر لها البلاد مثيلا فى العصر الفاطمى كله، وروعت الناس وجثمت على صدورهم ككابوس مخيف وراعت اخبارها كل من كتب عنها من المؤرخين، حتى أطلق عليها الكثيرون اسم "الشدة العظمى" وأفاضوا فى وصفها وبيان أسبابها. وقد بدأت هذه الأزمة بقصور النيل وكان فى الإمكان أن تمر كغيرها دون أن يصحبها ذلك البلاء العظيم الذي ينم عن قسوتها وعنفها برغم ما قد يبدو على أوصاف الكتاب من طابع المبالغة. إلا أن فساد الأحوال السياسية والانقسامات والفتن الداخلية كان العامل الأكبر فى تفاقم الأزمة واتساع نطاق خطرها وطول مدتها.

فى ظل الحكومات المطلقة حيث يتوقف كل شئ على إرادة الحاكم يصبح البلاط مركز النشاط ويتهافت كل فرد على نيل رضاء الحاكم بشتى الوسائل – مهما ابتعدت عن مبادئ الخلق القويم وطريق الشرف والكرامة – ولهذا كان قصر "المستنصر" جوًا من الدسائس يحيكها الأمراء والقواد ورجال البلاط والخصيان وأهل الخليفة من الرجال والنساء وغير هؤلاء، ولم يكن لهذا الخليفة من الحزم وقوة الشخصية ما يجعله قادرًا على كبح جماح أصحاب الأطماع ومدبرى الفتن. وليس هناك أدل على الفوضى واختلال الأمر وضعف الحكومة المركزية من أنه ولى الوزارة أربعون وزيرًا في تسع سنوات[١] وكان البعض منهم يصرف بعد أيام قلائل بل بعد يوم واحد من تقليده هذا المنصب[٢].

كما أحاط "المستنصر" نفسه بحرس أسود كبير العدد وزاد عدد هؤلاء العبيد وتوافرت أسباب النزاع بينهم وبين الجند الأتراك، وتطور النزاع إلى حروب علنية

---

(١) حسن ابراهيم حسن، "الفاطميون فى مصر"، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٣٥، ص٢٩١.

(٢) ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد بن أبى حامد واستقرت له الوزارة يومًا واحدًا وصرف بعده.

بين الفريقين دامت سنوات وأصبحت البلاد من أقصاها إلى أقصاها مسرحا للفتن وانقلب تطاحن هؤلاء المرتزقة من العناصر الأجنبية وبالا على البلاد. وعجز الخليفة عن أن يحول دون اندلاع لهيب الفتنة بل لعل سوء سياسته ساعد على استفحال نارها، فتارة يميل إلى جانب امه وعبيدها السودان وأخرى يهادن الاتراك ثم ينقلب عليهم. ولا شك أن الضعف الذي كان يبديه حين اشتداد الأمور أطمع المغامرين فيه.

وبرز في وسط هذا الجو الفاسد شخصيتان لهما أثر كبير فى إحداث الفتنة وتطورها، ونقصد بذلك "أم المستنصر" وكانت فى الأصل جارية من عبيد الشراء، "وابن حمدان" الذي تزعم الأتراك. وقد دفع حب الجنس والتماس العون هذه السيدة إلى الإكثار من شراء الجنود السود حتى صارت عدتهم خمسين ألفا وأولتهم عطفها وتأييدها وتشجيعها ولم يكن لابنها من بعد النظر القدر الذى يسمح له بإدراك العواقب التي تترتب على هذه السياسة. وما لبث زعماء السود أن علا نفوذهم وتحكموا فى الأمور معتمدين على تشجيع أم المستنصر لهم. ولا ريب أن أمرا كهذا أساء إلى الجند الأتراك واعتقدوا أن الخليفة وأمه يرميان إلى إضعاف شوكتهم ثم القضاء عليهم، ورأى زعماؤهم أن نفوذهم يتضاءل تدريجيًا فنشأ الحقد بين فريقى الجند وتوافرت عوامل الشقاق وأصبحت البلاد أشبه بمخزن بارود كما يقولون تكفى شرارة صغيرة لاحداث الانفجار الهائل.

ويبدأ اضطراب الأحوال منذ سنة ٤٤٦هـ حين ارتفع السعر وعم الغلاء وانتشر الوباء وأخفقت محاولات الحكومة الفاطمية فى الحصول على الغلال من الدولة البيزنطية وتوترت العلاقات بين الدولتين. وظلت الأمور فى ارتباك حتى عام ٤٥٤هـ وهنا حدثت الشرارة اللازمة. وقد حدثنا المقريزى[١] أن أحد الأتراك اعتدى وهو سكران على أحد العبيد فحدثت معركة بين جنود الطائفتين انتهت بهزيمة السود، فشق ذلك على أم المستنصر واعتبرت الحادث هزيمة سياسية ومقدمة للقضاء على سلطانها، وعزمت على الانتقام وأخذت تمد بنى جنسها بالمال والسلاح سرا فنمى خبر ذلك إلى الأتراك وتأكدوا من صدقه حين ضبطوا بعض ما كان يرسل فثارت ثائرتهم، وظنوا أن للخليفة يدا فى الأمر وأغلظوا له القول فأنكر وجود أى تواطئ بينه وبين الجنود السود وكذلك أنكرت أمه. ولكن لم يقف الأمر

---

(١) المقريزي، "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار"، مرجع سبق ذكره، جـ١، ص ٣٥١.

عند هذا الحد فتجدد النزاع المسلح بين الفريقين وخرج السود إلى شبرا ودمنهور وجاء عام ٤٥٦هـ والعداوة شديدة بين الطرفين[١].

ولكن انتصار الأتراك زادهم غرورا واستهانوا بالسلطة الخليفية في البلاد وطالبوا بزيادة أرزاقهم. واشتد الضر بخصومهم، وهنا قررت أم المستنصر أن تضرب ضربتها وخرج زعماء العبيد فدارت الفتن مرة أخرى وهزم السود وفروا الى الصعيد، وعاد زعيم الأتراك وهو "ناصر الدين حسين بن حمدان" إلى القاهرة وقد عظم أمره وزاد نفوذه فأخذت الأطماع الكامنة فى النفس تتحرك. لذلك يسعى إلى أن يكون صاحب الأمر الفعلي في البلاد ولكن وجد أمامه عقبتين هما أم الخليفة وطائفة السود فرأى أن يتغلب عليهما بأن يستخدم أتباعه حتى يقضى على دولة العبيد ثم ينقلب على سيدتهم فيسلبها سلطانها ويتخلص منها، فإذا تم له ذلك سهل الأمر عليه إذ لن يستطيع الخليفة أن يقف فى وجهه[٢].

أما خصومه فلم يقلوا عنه نشاطا فتجمع من السود خمسة عشر ألفا في الوجه القبلي وتحصن فريق آخر في الإسكندرية، وبقى قوم فى القاهرة أغرتهم أم الخليفة فوثبوا على الأتراك وقتلوا بعضا فرأى "ابن حمدان" ألا بد له من أن يقضى على خصومه قبل أن يضربوا ضربة أخرى قد تصيب منه مقتلا، فنظم أمره وجمع رجاله وطارد السود من القاهرة وأرغم من منهم بالإسكندرية على طلب الأمان وأصبحت السلطة فى الوجه البحرى فى يده ثم عاد إلى القاهرة حيث وجد المستنصر على استعداد لقبول شروطه[٣].

وكان لابد له أن يدفع بالخليفة إلى صراع مع الجند أنفسهم فحرضهم على أن يطالبوا بزيادة رواتبهم وارتفع مقررهم من (٤٨٠٠٠ دينار) إلى (٤٠٠٠٠٠ دينار)، ولكنه يعلم تمام العلم أن الحكومة لن تستطيع مواصلة الدفع على هذا القدر، وقد سادت الفوضى وعم المرض وتعطلت الزراعة بسبب الحرب الأهلية المتواصلة وقل إيراد الحكومة تبعا لذلك. وقد تحقق ظنه فطلب الجند إلى المستنصر أن يحصل لهم على المال بأى سبيل فاضطر الرجل الضعيف إلى أن يخرج ما فى خزائنه من تحف نادرة وثياب وفرش وسروج وأوان ذهبية وفضية وجواهر وحتى الكتب، وكل هذا بيع بأبخس الأثمان. أما "ابن حمدان" فنظنه فرحا إذ كل إذلال للخليفة كسب شخصي له وتمهيد الطريق لتحقيق الأطماع. ولكن خطر

---

(١) راشد البراوي، "حالة مصر الاقتصادية في العصر الفاطمي"، مرجع سبق ذكره، ص١٣٥.

(٢) حسن ابراهيم حسن، "الفاطميون فى مصر"، مرجع سبق ذكره، ص٢٩١.

(٣) المقريزي، "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار"، مرجع سبق ذكره، ص٣٧١.

العبيد ما زال قائما في الصعيد فسار إليهم وقتل كثيرًا منهم وزالت دولتهم وتحقق الشطر الأول من سياسة الزعيم المغامر وعاد إلى القاهرة واستبد بالأمر، ودخلت سنة ٤٦١هـ والحال على ما سبقت الإشارة إليه.

ولكن أطماعه نفرت بعض أتباعه منه فانحازوا إلى الخليفة وأنى له أن يتخلص من عدوه، ولكن هناك شيئا اسمه شجاعة اليأس فاستمد منها "المستنصر" قدرًا وأمر "ابن حمدان" أن يخرج من القاهرة ففعل، إذ رأى التيار يكاد يجرفه ثم جمع من ظل على الولاء له وصمم أن يحارب الخليفة نفسه فقبل "المستنصر" التحدي وتقابل الجمعان وانجلى الأمر عن هزيمة "ابن حمدان" أما كيف حدث ذلك فتفسيره تغير قلوب فريق من الأتراك، كما أن الرجل قد عم أذاه الجميع وفضل الناس والعامة منهم القضاء عليه إذ فى ذلك قطع دابر الفتنة وانتظام الأمور وتيسر سبل المعاش[١].

إلا أن الرجل واسع الحيلة ففر إلى البحيرة وتزوج منهم واستعان بهم وعظمت شوكته ومنع إرسال الأقوات إلى القاهرة. أما الحالة العامة فسيئة بطبيعة الحال فهناك فوضى شاملة والفلاحون يهملون الأرض وقطاع الطريق صاروا رعبًا للجميع، فبدأ الوباء العظيم وانتقل سراعا بساعده عدم توافر العناية والشروط الصحية، فاضطر "المستنصر" أن يصالح "ابن حمدان" فى سبيل الحصول على بعض الأقوات لأهل القاهرة ومصر. ثم فسد الخال وحاصر مقدم الأتراك القاهرة حتى يجيع أهلها ويثأر من انحيازهم قبل ذلك إلى الخليفة ولكن رجال "المستنصر" هزموه فرأى "ابن حمدان" أن يقدم على أمر خطير. لقد عجز حتى الآن عن إقرار الأمور فى يده بصفه ثابتة، إذن فلا مفر له من القضاء على الدولة الفاطمية، وفعلاً خاطب "القائم بأمر الله" في العمل على عودة الديار المصرية إلى حظيرة الخلافة العباسية حتى يكون له من اعتراف "القائم" بهذا الفضل دعامة تضمن له ولاية مصر كلها. ثم توجه إلى القاهرة ودخلها حيث وجد رسوله الخليفة جالسًا على حصير وليس معه سوى ثلاثة من الخدم وقد هزلت أجسام الجميع من الجوع[٢] وفى هذه الساعة التى علا فيها نجم مقدم الأتراك لم ينس خصومة أم الخليفة له فقبض عليها وعاقبها أشد عقوبة واستصفى أموالها وكانت هذه الأحداث الأخيرة كلها فى سنة ٤٦٤هـ[٣].

---

[١] المقريزي، "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار"، مرجع سبق ذكره، ص٣٧٢.

[٢] راشد البراوي، "حالة مصر الاقتصادية فى عصر الفاطميين"، مرجع سبق ذكره، ص١٣٦.

[٣] راجع المصادر الآتية عن الأزمة المستنصرية الكبرى :

وقد رسم "المقريزى" صورة قاتمة لحالة البلاد امامه تكفى وحدها أن تظهر لنا بعض الأسباب التى أدت إلى هذه النكبة، فقال "لم تر الدولة صلاحا ولا استقام لها أمر وتناقضت عليها أمورها ولم يستقر لها وزير تحمد طريقته ولا يرضى تدبيره وكثرت السعاية، فيها فما هو إلا أن يستخدم الوزير حتى يجعلوه سوقهم ويقعوا به الظن حتى ينصرف ولم تطل مدته وخالط السلطان الناس وداخلوه بكثرة المكاتبة فكان لا ينكر على أحد مكاتبته. فتقدم منهم كل سفاف وحظى عنده عدة اوغاد وكثروا حتى كانت رقاعهم أرفع من رقاع الرؤساء والجلة وتنقلوا فى المكاتبة إلى كل فن حتى أنه كان يصل إلى السلطان كل يوم ثمانمائة رقعة فتشبهت عليه الأمور وانتقضت الأحوال. ووقع الاختلاف بين عبيد الدولة وضعفت قوى الوزراء عن تدبيرهم لقصر مدتهم وإن الوزير منذ يخلع عليه إلى أن ينصرف لا يضيق من التحرز ممن يسعى إليه عند السلطان وتقف عليه الرجال، فما يكون فيه فضل عن الدفاع عن نفسه فخربت أعمال الدولة وقل ارتفاعها وتغلب الرجال على معظمها. وتجرأوا على الوزراء واستخفوا بهم وجعلوهم خوضا لسهامهم ... فتلاشت الأمور واضمحل الملك[١].

ودامت الأزمة من سنة ٤٥٧هـ إلى ٤٦٤هـ وكانت هذه السنين السبع يمد النيل فيها ويطلع وينزل فلا يجد من يزرع أراضى مصر من اختلاف العسكر وانقطاع الطرقات فى البر والبحر إلا بالخفارة الثقيلة، ويرجع هذا الغلاء الشديد في معظمه إلى قصور ماء النيل واختلاف الكلمة وانعدام الأمن والحروب الناشئة بين طوائف الجند "وصارت أراضى الناحية بائرة لم تزرع من عدم الرجال فكان الجندى يخرج بنفسه هو وجماعته يحرثون ويزرعون فى البلاد لعدم وجود الفلاحين"[٢].

وهكذا خرج الجند عن تقاليدهم بدافع الحاجة والجوع. وقد لخص ابن منجب الصيرفى وهو من موظفى الدولة الفاطمية أسباب هذه الأزمة فأوجزها فى هذه

- ابن منجب الصيرفى، "الإشارة إلى من نال الوزارة"، القاهرة، ١٩٢٤، ص٥٠ – ٥٣.
- النويرى، "نهاية الإرب في فنون الأدب"، دار الكتب المصرية، الجزء ٢٦، ص٦٩.
- المقريزى، "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، مرجع سبق ذكره، جـ ١، ص٢٢.
- المقريزى، "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، مرجع سبق ذكره،جـ ١، ص٣٣٥-٣٣٧.
- ابن اياس، "بدائع الزهور في وقائع الدهور"، مرجع سبق ذكره، جـ١، ص٦١.

[١] المقريزى، "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، مرجع سبق ذكره، جـ ١، ص٢١ – ٢٣.

[٢] ابن اياس، "بدائع الزهور في وقائع الدهور"، مرجع سبق ذكره، جـ١ ، ص ٦١.

العبارة المتزنة المعتدلة "أما العزائم فقد وهنت وأسباب الفساد قد بلغت الغاية وانتهت والمراقبة قد نزرت وقلت والمهابة قد تلاشت واضمحلت"[١] ،ولا ريب ان الرجل أصدق الوصف ولم يحاول المبالغة.

وأن الأسباب التي أوردها الكتاب بصدد هذه الأزمة لتبين لنا مدى العلاقة الوثيقة بين الحالتين السياسية والاقتصادية وفي الحقيقة لقد أثبت تاريخ مصر في كافة عصورها أن فترات القوة والرخاء هي نفسها الفترات التي شاهدت البلاد فيها تقدم الزراعة ونموها.

١- مظاهر أزمة الشدة المستنصرية :

كان من أول مظاهر الأزمة ارتفاع أسعار الحبوب والمواد الغذائية ارتفاعا شديدا . فقد ذكر "النويري" أن رغيف الخبز بيع بأربعة عشر دينارًا أو درهما وبيع أردب القمح بمئتي دينار[٢] وقال "ابن الزيات" إن ثمن الأردب بلغ إحدى وسبعين دينارًا[٣].

وتجدر الإشارة إلى أن هناك فوارق كبيرة بين التقديرات التي أوردها المؤرخون فالبعض يجعل الدرهم دينارًا، وعلى كل فيجب الأخذ بهذه الأرقام بكثير من التحفظ على حد تعبير الاقتصاديين المعاصرين، كما أن تناقل الروايات واختلاف وجهات نظر الرواة وأخطاء النساخين، كل هذا يفسر لنا تضارب الأرقام واختلاف الأوضاع.

واشتد الارتفاع حتى بيعت البيضة بعشرة دراهم[٤] وأكل الناس الجيف[٥] ووقف الناس في الطرقات يقتلون من يظفرون به وأكل القوم بعضهم بعضا[٦].

---

(١) ابن منجب الصيرفي، "الإشارة إلى من نال الوزارة، مرجع سبق ذكره، ص٥٠.

(٢) النويري، "نهاية الإرب في فنون الأدب"، مرجع سبق ذكره، ص٥٠.

(٣) ابن الزيات، "الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى"، القاهرة، ١٣٢٥هـ، ص ١٧٧.

(٤) السيوطي، "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة"، مرجع سبق ذكره، ص٩١.

(٥) ابن ميسر، "أخبار مصر"، مطبعة هنري ماسييه، القاهرة، ١٩١٩، ص١٩.

(٦) ابن الزيات، "الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى"، مرجع سبق ذكره، ص١٧٧، المقريزي، "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، مرجع سبق

ولسنا نعجب لأمر كهذا في وقت القحط الشديد. وترجع قلة الأقوات إلى موت عدد كبير من الفلاحين وفرارهم من الحقول بسبب الحروب بين طوائف الجند وصعوبة إرسال الغلال بسبب الفوضى وأخطار الطريق وإهمال الحكومة أمر الترع والجسور، بل نعتقد أن الجند السود حين كانوا بالصعيد منعوا إرسال الغلال إلى القاهرة حتى لا يتقوى خصومهم، وكذلك فعل "ابن حمدان" حين كان له الأمر في الوجه البحري حتى يجبع أهل مدينتي القاهرة ومصر ويرغم الخليفة على الرضوخ له. وصحب المجاعة وباء أو طاعون قيل إنه أفنى ثلثي أهل مدينة مصر [١]. حتى أنه كان يموت الواحد من أهل البيت فلا يمضي يوم وليلة من موته حتى يموت سائر من في ذلك البيت ولا يوجد من يستولي عليه[٢]. وانتشر الجدري بين الأطفال فأهلك منهم نحو (٢١,٠٠٠) في أقل من شهر واحد[٣]، وأخذ بعض من لم تصبه العدوى في الفرار إلى البلاد الشامية والعراقية[٤]، حتى ينجو من موت محتوم ولعل بعض الأغنياء هم الذين عرفوا استغلال هذه الفرصة وكانت نساء القصر تخرجن ناشرات شعورهن تصحن "الجوع ! الجوع!" تردن المسير إلى العراق فتسقطن عند المصلى بسبب الهزال الشديد وتمتن جوعاً[٥].

أما الأمن فقد اختل إلى حد كبير ومدت الأجناد أيديها إلى النهب والسلب وتهيأت الفرصة أمام الأشرار وقطاع الطرق وفقراء البدو، ولم يتورع أحد عن الاعتداء على غيره. أما السبل وطرق المواصلات بالبر والنيل فانقطعت بسبب

ذكره، جـ١ ، ص ٣٣٧ (راجع قصة امرأة قضى عليها وادخلت إلى منزل فيه سكاكين وآثار الدماء وقطع أهله شرائح من أفخاذها وكانت على جانب من السمنة ....).

(١) ابن إياس، "بدائع الزهور في وقائع الدهور"، مرجع سبق ذكره، جـ٢ ص ٦١ ويبدو من كلامه أن الفسطاط كانت أشد الجهات تأثرا بالمرض بسبب شدة الازدحام بها، ويحسن أن نشير الى ما تقول بعض مصادر العصور الوسطى بأوروبا إن الوباء المسمى بالموت الأسود (١٣٤٩ – ١٣٥٠) أودى بحياة نحو نصف سكان انجلترا.

(٢) المقريزي، "الوقائع والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، مرجع سبق ذكره، جـ ١، ص ٣٣٦ – ٣٣٧ .

(٣) Abu Saleh:(١٩٥٩) "Churches and Monasteries of Egypt" .Oxford. p.٢٣٢.

(٤) السيوطي، "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة"، مرجع سبق ذكره، ص٩٢.

(٥) المقريزي، "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، مرجع سبق ذكره، جـ ١، ص٢٥.

تعرض المسافرين وغيرهم لاعتداء الجند واللصوص، وخربت أحياء بأكملها في الفسطاط وحرقت دور كثيرة بها وتعطلت التجارة والصناعة.

٢- مواجهة الفاطميين للأزمات البيئية:

وأخيرًا ارتفع النيل وروى الأرض وانحل السعر وزال الكابوس الذى خيم على أنفاس البلاد في تلك السنوات السبع العجاف وقتل "ابن حمدان" على يد بعض خصومه ولابد أن هذا حدث بعد أن انتهت موجة الوباء. وقد دفع اليأس وسوء الحال بالخليفة "المستنصر بالله" فاستدعى "بدر الجمالى" من فلسطين ولم يمض زمن طويل على وصوله وتوليه الوزارة حتى عاد الرخاء تدريجيًا، إذ ضرب الوزير الجديد على أيدى دعاة الفتنة وعناصر الشر والفساد بيد من حديد وأعمل القتل فى قادتهم والتشتيت فى عامتهم وخلص الوجه البحرى من العرب والصعيد من السودان. وراعى الفلاحين وخفف من أعبائهم فهدأت الحال واستقرت الأمور وعاد الفلاح المصرى الذى خرج سالمًا من الأحداث الماضية إلى استئناف العمل بالحقل ومزاولة الزراعة. وأخذت البلاد من جديد تستقبل عهدًا من الرخاء دام نصف قرن، وقيض "للمستنصر" أن تكون العشرون سنة الباقية من عمره وخلافته الطويلتين سنوات هدوء وسلام بعد العواصف والأنواء السابقة.

وهنا يثار تساؤل لماذا لم يقم الشعب بالثورة للتخلص من الفتن والمنازعات بين الزعماء؟ ويمكن إرجاع ذلك إلى قوة النظام الذى يقرب من الاسترقاق، وحرص سكان المناطق الزراعية السهلة على الهدوء فى غالب الأحيان، والرعب الذي أثاره في نفوسهم، والضعف الشديد المترتب على الأمة ونكباتها وكذلك العقيدة فى الأحداث القدرية، فضلا عن أن تلك الأزمات والنكبات كانت شيئًا شبه عادى مألوف فى هذا العصر والذى شهد أزمة بمعدل كل تسع سنوات.

ثالثًا: الآثار السياسية والاجتماعية والاقتصادية للأزمات البيئية (الشدة المستنصرية):

كان لهذه الأزمة الطاحنة آثار سياسية واجتماعية واقتصادية وغيرها، وإن هذه الآثار كانت بعيدة الغور متشعبة النواحى ويمكن إيجازها فى الآتي:

- عجز الخليفة "المستنصر" ألجأه إلى الاستعانة "ببدر الجمالي" ثم أطلق يده فى تدبير الأمور، وبذلك بدأ عصر جديد يعرف باسم "عصر الوزراء العظام" الذين أصبح بيدهم الأمر كله ولم يدعوا للخلافة فى أغلب الأوقات إلا اسمها،

حتى أن الأفضل بن بدر الجمالى اختار للخلافة طفلا يكون ألعوبه بين يديه[١]. ولا ريب أن انتقال السلطة الفعلية إلى أيدى الوزراء أدي إلى التكالب على هذا المنصب، وأوجد المنافسات والمؤامرات والدسائس حتى انتهى الأمر بالاستعانة بالأجانب. وكان من أثر هذا التدخل أن تمكن "صلاح الدين الأيوبي" من السلطة فقطع الخطبة للفاطميين. ولما مات الخليفة "العاضد" ختم بموته حكم الفاطميين فى مصر. كما أن الضعف الذي انتاب قوى البلاد المادية والحربية والذى جاهد "بدر الجمالي" وابنه من بعده فى علاجه دون نجاح كبير كما كانا يرجوان أضعف قبضة مصر على البلاد الشامية وأهمل الجيش والأسطول فلما بدأت العاصفة الصليبية تهب على الشرق كانت قوة الفاطميين وعظمتهم وهيبتهم الأولى على وشك المغيب وما استطاعوا للنكبة دفعًا، وإن كان لانتصار الصليبيين فى حملتهم الأولى أسباب أخرى.

أودى وباء الطعون بحياة الألوف من الأهلين فى ريف مصر ومدنها وكان لابد من انقضاء وقت طويل حتى تعود الحياة فى البلاد سيرتها الأولى. وقد انتقلت ملكية مساحات واسعة من أراضى المالكين إلى بيت المال لهلاك أربابها وانعدام ورثتهم فزادت مساحة أراضى الحوز على الملكية الخاصة، وحدث تعديل فى نظام إقطاع هذه الأراضي فأصبحت ابتداء من أيام الوزير "المأمون البطائحى" تمنح لمدة ثلاثين سنة بعد أن كان الأمر قاصرًا على أربع سنوات. وأصبح أغلب المقطعين من الأمراء والأجناء وكبار الموظفين من أصحاب الرواتب الثابتة[٢].

تضاءلت إيرادات الحكومة خلال سنوات الأزمة ولما انتهت كانت هناك مبالغ طائلة لم تدفع إلى بيت المال. يضاف إلى هذا أن النكبة التى أصابت الزراعة واستمرت آثارها زمنًا طويلاً كان لابد أن تؤدى إلى نقص إيراد الضرائب

---

(١) حسن إبراهيم، "الفاطميون في مصر"، مرجع سبق ذكره، ص٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص٦٤.

العقارية ولهذا نعتقد أن حكام مصر فى العصر الفاطمى الأخير أخذوا يزيدون من الضرائب غير المباشرة أى المكوس بلغة ذلك العصر[١] .

وقد بدأ خراب مدينة الفسطاط منذ ذلك الوقت بسبب ما تعرضت لـه مـن الحصار أيام ثورة "ابن حمدان" ومات عدد كبير من أهلها وخربت أجـزاء منهـا كالقطائع وخط جامع ابن طولون[٢] وتقهقر نشاطها التجاري واضمحلت كثير مـن صناعاتها، ومنذ ذلك الوقت أخذت القاهرة تجتذب النشاط إليها وتستعد للدور الـذي أصبحت فيه فيما بعد العاصمة السياسية والتجارية والصناعية للديار المصرية.

منيت مصر بأكبر الخسائر أثناء "الشدة العظمى" وهى تلك النفـائس التـي أخرجت من قصور "المستنصر" مما رواه مؤلف "كتـاب الـذخائر" وحفظـه لنـا "المقريزى" حتى يكاد العقل يقف حائرًا أمام جسامة ما نهب من القصور على يـد الجنود الأتراك وزعيمهم "ناصر الدولة" حتى عجز الرواه عن إحصاء ما نهـب أو بيع صوريًا من خزائن الكسوات والفرش والأمتعة والطيب والجوهر والسروج.

ولنضرب لذلك مثلاً ذكره "المقريزى" في "كتاب الذخائر" وحدثنى من أثـق به عن "ابن عبد العزيز الأنماصى" قال قومنا "أخرج من خزائن القصر من سـائر الخسروانى ما يزيد على خمسين ألف قطعة أكثرها مذهب وسالت "ابن عبد العزيز" فقال أخرج من الخزائن ما حررت قيمته على يدى ويحضرنى أكثر من مائة ألـف قطعة وأخرج مرتبة خسروانى حمراء بيعت بثلاثة آلاف وخمسمائة دينار ومرتبـة قلمونى بيعت بألفين وأربعمائة دينار ونيف وعشرين ألف قطعة خسروانى، وكانت قيمة العرض المبيع بأقل القيم وأبخس الأثمان فى مدة خمسة عشر يومًا من صـفر سنة ستين وأربعمائة سوى ما نهب وسرق ثلاثون ألف ألف دينار قـبض جميعهـا الجند الأتراك ليس لأحد منهم درهم واحد قبضه عن اسـتحقاق[٣]، وفقـدت آلاف القطع من البلور والخزف والزجاج والحلى والأوانى الذهبية والفضية.

وبغض النظر عن عنصر المبالغة فقد فقدت البلاد ثروة ضخمة أهم ما فيها الناحية الفنية التى كانت كفيلة أن تلقى الضوء على عظمة البلاد الصناعية ومهارة الفنانين المصريين فى ذلك العصر ، أما من الناحية العلمية فالخسارة أكبر مـن أن

---

(١) المقريزى، مرجع سبق ذكره، جـ١ ، ص ٨٣" .

(٢) ابن الزيات، "الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصـغرى"، مرجـع سبق ذكره، ص ١٧٧.

(٣) المقريزي، "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار"، مرجع سبق ذكره، جـ١، ص٤١٦.

تعوض وفقدت مصادر قيمة من المؤلفات والسجلات الرسمية مما كان يصبح مادة لا تنفد لمن يكتب عن هذا العصر . إذ استولى الجند والأمراء على نفائس ما فى خزانة الكتب فتفرقت أكثر محتوياتها وكان بعض العبيد يتخذون من جلودها نعالا يلبسونها في أرجلهم، كما كانوا يحرقون ورقها قائلين إن فيها كلام المشارقة الذى يخالف مذهبهم وأهمل من الكتب عدد كبير سفت عليه الرياح التراب فصار تلالا كانت باقية فى زمن "المقريزى" وكانت تسمى تلال الكتب؛ وهذا أبلغ تعليق على هذه الخسارة الفادحة أو أفصح رثاء لها.

رابعًا: سياسة الفاطميين إزاء احتواء الأزمات البيئية:

لم تقف الحكومة الفاطمية ساكنة أمام الأزمات بل كانت تتخذ أشد الإجراءات وأجداها نفعًا ووقف موجة الغلاء وتوفير الأقوات حتى لا ينتشر القحط والوباء.

ويظهر أنها كانت تعتقد أن تجار الغلال وسماسرتها هم الطبقة المسئولة إلى حد كبير عن ارتفاع الأسعار، وبعبارة أخرى كانت تعد أسباب الغلاء فى كثير من الحالات غير طبيعية بل من فعل المختزنين والمحتكرين، ولذا لم تتوان من أخذهم بما كانوا يستحقون من العقاب الصارم فقد ضرب "جوهر الصقلي" جماعة من الطحانين وأمر أن يطاف بهم[١] في أسواق المدينة للتشهير بهم. وفعل الخليفة "الحاكم بأمر الله" الشئ نفسه مع الطحانين والخبازين[٢] وحذا حذوه غيره من الخلفاء والوزراء. ولم يقف الأمر عند الضرب والتشهير بل إن الحاكم بأمر الله توجه إليه الناس يشكون من اختفاء الأقوات فأعلن أنه متوجة فى الغد إلى جامع راشدة، فإذا لم تخرج الغلال من مخازنها ضرب عنق من كان لديه شئ منها فأفاد الوعيد وسارع التجار والسماسرة إلى خراج ما لديهم وهبطت الأسعار وانتهت المحنة بسلام[٣].

ومن الوسائل التى اتخذتها الحكومة الفاطمية لمكافحة الغلاء تسعير الاقوات والسلع الضرورية وتحتيم بيعها فى بعض أوقات الأزمات فى مكان معين تحت الإشراف الدقيق من جانب المحتسب وأعوانه[٤]. وكثيراً ما لجأ الفاطميون إلى المصادرة وتنظيم بيع الغلال، ففي أزمة سنة ٣١٧هـ برزت الأوامر "لمسعود

---

(١) المقريزى، "إغاثة الأمة بكشف الغمة" مرجع سبق ذكره، جـ١، ص١٣-١٤.

(٢) المقريزى، "اغاثة الأمة بكشف الغمة"، مرجع سبق ذكره، جـ١، ص١٦.

(٣) ابن إياس، "بدائع الزهور في وقائع الدهور"، مرجع سبق ذكره، جـ١، ص ٥٥.

(٤) المقريزي، "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، مرجع سبق ذكره، جـ١، ص ١٣- ١٤ ، ١٥ - ١٦.

الصقلي" متولي الستر فجمع مخزون الغلال وصادر ما فى الساحل منها وأمر ألا تباع إلا للطحانين وسعر القمح كل تليس بدينار إلا قيراط والشعير عشر ويبات والحطب عشر حملات بدينار وسعر سائر الحبوب والمبيعات[١]. وكانت مصادرة الغلال إجراء سليمًا لا غبار عليه فى سبيل راحة المستهلكين وقد هدد بها الوزير "المأمون البطائحي" في خلافة الآمر أن لم يهبط السعر إلى كل مائة أردب بمائة وثلاثين دينارا.

وفى عهد الخليفة المستنصر بالله أخرج اليازورى ما فى الأهراء من الغلال وأمر ببيعها بسعر منخفض مما أدى إلى هبوط الأسعار فى السوق. وكان هذا العمل خطأ من جانب "اليازوري" فلما حدث القحط لم يكن بالمخازن إلا جرايات من فى القصور ومطبخ السلطان أى الخليفة وحواشيه[٢] فلجأ إلى الإمبراطور "Constantine Nonamachos" واتفق معه على أن تصدر الدولة البيزنطية إلى مصر مليوني بوشل[٣] من القمح لمواجهة هذه الأزمة التى دامت حتى مات الإمبراطور عام ٤٤٧هـ ؛ وخلفته الإمبراطورة "تيودورا" التي اشترطت اشتراك مصر وبيزنطة في معاهدة دفاعية هجومية فأبى "اليازوري" بأن يرتبط بعهد كهذا[٤] يعرض مركز البلاد لارتباكات خطيرة، كما أن حاجة مصر إلى القمح ليست دائمة بل متعلقة بالسنة التي كان فيها هبوط النيل دون المستوى العادي. وإزاء هذا الرفض أوقفت الامبراطورة تصدير الغلال إلى مصر.

ويظهر أن "اليازورى" أراد استئصال جذور الشر فاتخذ إجراءً جديدًا بقصد سد الطريق على المحتكرين والمضاربين من التجار والسماسرة الذين كانوا ينتهزون فرصة إعسار المعاملين من الزراع والفلاحين وضيق الحال عليهم فى القيام للديوان بما عليهم من الخراج فيشترون منهم غلاتهم قبل أوان الحصول بسعر فيه ربح لهم فإذا صارت الغلال فى البيادر حملها التجار إلى مخازنهم فأصدر الوزير الأوامر بمنع ذلك. وكتب إلى عمال النواحى باستعراض روزنامجات الجهابذة وتحرير ما قام به التجار عن المتعاملين وغير هذا ثم بعث المراكب

---

(١) المرجع السابق ص ١٦ – ٢٧.

(٢)المقريزي، "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، مرجع سبق ذكره، ص١٨.

(٣) البوشل يساوى ٢,٢ كيلة.

(٤)O'Leary: (١٩٧٨) "A Short History of the Fatimi Khaliphate". London. p. ١٩٧.

لإحضار الغلال إلى مصر ووضعها فى المخازن السلطانية[١] لأنه يعلم من تجاربه الماضية ضرورة الاحتياط ضد الطوارئ المستقبلة. وقد اتخذ إجراء آخر لعله سابقة لتقييد الاستهلاك وتنظيم هذه العملية حتى لا يتلاعب بها البعض فخصص سبعمائة تليس من القمح يوميا لمدينة مصر وثلاثمائة تليس للقاهرة[٢]. وبذا تمكن من التغلب على الأزمة التى نشبت ودامت حتى أوان ظهور المحصول الجديد. وكانت الأهراء الحكومية عاملا من عوامل مكافحة الأزمات، ففي أيام الخليفة الفائز أخرجت منها مقادير لا تحصى من الغلال وفرقت على الطحانين ورخصت أسعارها ومنع الاحتكار[٣].

وعمل الفاطميون أيضًا على حماية الماشية فقد ذكر "أبو المحاسن"[٤] أنه لما وقع الفناء فى ذوات الأربع سنة ٤١٧هـ منع الخليفة "الظاهر لإعزاز دين الله" ذبح الأبقار السليمة من العيوب التى تصلح للحرث وغيره والمخصوصة لعمارة الأراضى والمذللة لمصالح الخلق فإن فى ذبحها غاية الفساد وإضرارًا للعباد والبلاد وأباح ذبح مالا يصلح للعمل ولا يحصل به النفع.

وإذا استثنينا حوادث الغلاء وكان السبب الأكبر فى كثير منها قصور النيل عن الوفاء أو ارتفاع الفيضان إلى حد الإفراط وهى ظروف ما كان لهم فى ذلك العصر أن يتنبأوا بها أو يدفعوها، ألفينا السياسة الفاطمية بوجه عام اتجهت إلى العناية بالرى والزراعة.

بعد أن استقر الأمر "لجوهر الصقلي" ونجح في القضاء على فلول المقاومة ومكافحة الغلاء الذي طغى على البلاد بعد موت "كافور الاخشيدي" أخذت الأحوال فى الانتظام. ولما انتقل "المعز لدين الله" إلى قاعدة الملك الجديد نظم الإدارة المالية أو جباية الخراج بمعنى أوضح، وعنى هو ومن بعده بعمارة الجسور وتطهير الترع وتأمين الزراع.

ولا ريب أن انتشار الأمن كان سببًا هامًا في تقدم الزراعة، ويشهد بذلك أن الخراج حتى نهاية عصر "الحاكم بأمر الله" تراوح بين ثلاثة وأربعة ملايين

---

(١) المقريزى ، إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص٢٠ – ٢١.

(٢) المرجع السابق ص٢٢.

(٣) المقريزي، "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، مرجع سبق ذكره، ص٢٥١.

(٤) أبو المحاسن، "النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة"، مرجع سبق ذكره، ص٢٥٢.

دينار[١]. ونفذت حكومة الخليفة "الحاكم بأمر الله" مشروعا كان له الأثر العظيم في تسهيل الري والمواصلات، ذلك أنه في عام ٤٠٤هـ طهر خليج الإسكندرية بعد أن طمس تقريبا خاصة في قسمه الأول عند خروجه من فرع رشيد وبلغ ما انفقته الحكومة على هذا العمل خمسة عشر ألف دينار[٢] واستفادت من هذا العمل منطقة كبيرة في مديرية البحيرة إذ كان الخليج يغذي عددا كبيرا من الترع أورد "ابن مماتي" أسماؤها في كتابه "قوانين الدواوين". وكانت حالة البلاد كذلك في رخاء وسعة عيش في صدر خلافة "المستنصر" كما يدل على ذلك الوصف الذي خلفه لنا "ناصر خسرو". الذي زار مصر عام ٤٣٩هـ حتى كان كل امرئ مطمئنا على حياته وماله، تدل عبارته على نظرة الحكومة إلى الفلاحين، فيقول "ناصر خسرو" "ولما انتهى إلينا حال العاملين والضمناء والمتصرفين وما في جهاتهم من بقايا معاملاتهم أمرنا بما تضمنه هذا السجل من المسامحة قصدًا في استخلاص ضامن طالت غفلته وخربت ذمته وإنقاذ عامل أجحف به من الديوان طلبته وتوفر الرغبة على عمارتها وجريها فيها على قديم عادتها، ولما كان ذلك من جميل الأحدوثة التي لم نسبق إليها ولا شاركنا ملك فيها اقتضت الحال إيرادها في هذا الكتاب وإيداعها في هذا الباب لما أطلعنا عليه مما انتهت إليه أحوال الضمناء والعاملين بالمملكة من الاختلال وتجمد البقايا في جهاتهم والأموال عطفنا عليهم برأفة ورحمة، وطالعنا المقام الأشرف النبوي بالتفصيل من أمورهم والجملة واستخرجنا الأمر العالي بوضع ذلك في الحال وإنشاء السجلات الكريمة مقصورة على ذكر هذا الإحسان، وتنفيذها إلى جميع البلدان ليقرأ على رؤوس الاشهاد بسائر البلاد ومبلغ ما انتهت إليه المسامحة إلى حين ختم هذا السجل من العين ألفا ألف وسبعمائة ألف وعشرون ألفا وسبعمائة وسبعة وستون دينارًا ونصف وثلث وثلثان وربع قيراط ومن الفضة النقرة أربعة دراهم ومن الورق سبعة وستون ألف وخمسة دراهم ونصف وسدس درهم ومن الغلة ثلاثة آلاف ألف وثمان مائة ألف وعشرة آلاف ومائتان وتسعة وثلاثون أردبًا .. الخ[٣].

---

[١] المرجع السابق ص ٢٥٣.

[٢] ناصر خسرو، مرجع سبق ذكره، ص ٥٥، ٥٦.

[٣] المقريزي، "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار"، مرجع سبق ذكره، جـ١ ص٨٣-٨٤.

وقد امتدح الكتاب الأوروبيون سياسة الفاطميين إزاء الفلاحين فقال البعض ان التسامح كان طابع حكمهم[١] وإن معاملة الشعب على ايديهم كانت خيرا منهما على ايدى سواهم[٢] من الحاكمين.

واخيرا فقد كان الفلاح المصري في عهد الفاطميين يستطيع أن يتصرف في الأرض[٣]، ويغير موطن إقامته حسبما شاء. وهنا تبدو أهمية هذا إذ ذكرت حالته في العصرين المملوكي والعثماني فهي رق وعبودية إلى الحد الأقصى، وقد شهد "المقريزى" و"ابن إياس" و"الجبرتي" أن حالة الفلاح المصري كانت دون مستوى العبيد فكان فى استطاعة سيده قانونا أن يضربه بالسياط أو يحبسه وأكثر من هذا أن يقتله كما كان الحال فى ظل حكومة المماليك[٤].

خامسا: الخاتمة:

من العرض السابق يمكن أن نخرج بمجموعة من النتائج الهامة والتى يمكن حصرها في الاتى:

- إن العصر الفاطمى من أكثر العصور تأثيرًا في مصر والذي شهد تحولات اجتماعية واقتصادية وسياسية كان لها أثرها البارز فى حدوث الأزمات والتى بلغت قرابة ٢٠ أزمة على مدار ١٨٠ عام من عمر الدولة الفاطمية بمصر.
- إن أشد أزمات هذا العصر هى "الشدة المستنصرية" والتي كان من أسبابها الرئيسية فيضان النهر. بالإضافة إلى الفتن والصراعات السياسية، وتردى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وهو ما أسهم فى طول عمر الأزمة واتساع نطاقها وقوة تأثيرها.

---

(١) Stanley Lane-Poole: (١٩٦٤) "Egypt in the MIddle Ages". London. p.١٥٧.

(٢) R.L. Devonshire: (١٩٦٠) "L'Egypte Musulmane et les fondateurs de ses monuments", Paris. p.٤٨.

(٣) A.N. Poliak: La Feodalite Islamique (Revue des Etudes Islamiques ١٩٣٦), pp. ٢٦١ – ٢٦٢.

(٤) راجع المقريزى، "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، مرجع سبق ذكره، جـ١، ص٨٥.

ابن اياس ، بدائع الزهور جـ٥ ص ٣٧٢ – ٣٧٣.

الجبرتي عجائب الآثار جـ٤ ، ص ٦٨.

لم تخلو مصر من الأزمات المختلفة التى يمكن إرجاعها إلى العوامل الطبيعية مثل الفيضانات – الأمطار الغزيرة وما ينتج عنها من سيول- العواصف الريحية والرملية- الزلازل- الاوبئة. ولكن أشدها على الاطلاق الازمات المرتبطة ارتباطا وثيقا بمشكلة الغذاء، وهى أزمات المجاعات نتيجة للأوضاع الاقتصادية والطبيعية التى مر بها المجتمع.

استطاعت الحكومات الفاطمية أن تحتوى معظم الأزمات البيئية التى تعرضت لها مصر خلال ذلك العصر وذلك عن طريق تسهيل طرق الرى أو العناية بالزراعة أو عن طريق استيراد القمح من الدول المجاورة والتى اعتمدت فى إنتاجها على مياه الأمطار وليست فيضان النهر (الدولة البيزنطية- سوريا).

استحدثت الأزمات التي مرت بها الحكومات الفاطمية العديد من المناصب الحكومية والتطورات الإدارية وقد تمثل ذلك في بروز منصب المحتسب.

- كانت سياسة الفاطميين ترمى إلى العناية بالفلاحين وعدم إرهاقهم بالضرائب ومعاملتهم معاملة تنطوى على العطف حيث تمتعوا بحرية التصرف فى الأرض وتغيير موطن الأقامة وهو مالم نجده في أي عصر من العصور التالية.
- كانت لأزمة "الشدة المستنصرية" أثرها في بروز نجم الوزراء واستئثارهم بالنفوذ والسلطان، حيث بدأ عصر الوزراء العظام فى الدولة الفاطمية بدءًا من "أبو محمد الحسن البارودي" وتبعه "بدر الجمالي" والذي أورث ابنه الوزارة في أول سابقة من نوعها فى عصر الدولة الإسلامية.

لابد من احتواء الأزمات وذلك من خلال إدارة واعية للخروج من الأزمة ويجب الاعتماد على مجموعة من الحلول في مواجهة الأزمات واحتوائها.

المراجع والمصادر

أولاً: المراجع العربية:

١- ابن ابي اصيبعة، عيون الأنباء فى اخبار الأطباء، جزءان، القاهرة، ط٣، ١٩٤٠.

٢- ابن الزيات، الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى، القاهرة، ١٣٢٥هـ.

٣- ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، بولاق، القاهرة، ١٣١١هـ.

٤- ابن منجب الصيرفى، الإشارة إلى من نال الوزارة، القاهرة، ١٩٢٤.

٥- ابن ميسر، أخبار مصر، مطبعة هنري ماسيه، القاهرة، ١٩١٩.

٦- أمين سامى باشا، تقويم النيل، القاهرة، ١٩٣٨.

٧- السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة، جزءان، ١٣٢٧هـ.

٨- المقدسي،أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٦.

٩- المقريزى، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، القاهرة، ١٣٧٠هـ.

١٠- المقريزى، "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، طبعة مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٤٠.

١١- النويرى، "نهاية الإرب في فنون الأدب"، دار الكتب المصرية، جـ ٢٦، ص٦٩.

١٢- حسن ابراهيم حسن، الفاطميون في مصر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٣٥.

١٣- راشد البراوى، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٤٨.

١٤- عمر الفاروق سيد رجب، فصول في جغرافية مصر التاريخية في العصور الوسطى، جـ١، القاهرة، المنار، ط ٥ ، ٢٠٠٠.

١٥- ناصر خسرو، "سفرنامة" ترجمة يحيى الخشاب، الألف كتاب الثانية، رقم ١٢٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣.

١٦- يحيى بن سعيد، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت، طبعة ١٩٥٩.

ثانيا: المراجع الأجنبية:

١- Abu Saleh:(١٩٥٩) "Churches and Monasteries of Egypt" ,Oxford.

٢- A.N. Poliak:(١٩٨٦) "La Feodalite Islamique (Revue des Etudes Islamiques),Paris.

٣- O'Leary: (١٩٧٨) "A Short History of the Fatimi Khaliphate", London, p. ١٩٧.

٤- R.L. Devonshire: (١٩٦٠) "L'Egypte Musulmane et les fondateurs de ses monuments" , Paris.

٥- Stanley Lane-Poole: (١٩٦٤) "Egypt in the MIddle Ages", London, p.١٥٧.